

ثم إنهم في ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذاتي بالفخر الحماسي والفخر الحزبي ولذلك لم نر بأساً في التعرض لهم في هذا الباب .

وإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبي في هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكي المحاسني إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابي وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموي ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألح لمعات الأسنة والسيوف تقع في اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور في حومة الوغى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيدأتهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروعة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدأ يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يمضي على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبى من يقول قصيدة أو أبياناً في ذم خصومه في الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً في وقية ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟ » .